

استهداف عرفات، والحماية الدولية**

فيصل حوراني*

ياسر عرفات واحد من أشهر شخصيات النصف الثاني من القرن العشرين، وقد شغل موقع الصدارة في قيادة حركة التحرير الوطني الفلسطينية على مدى ما اقترب من أربعين سنة متصلة. وفي هذا الموقع، استحوذ ياسر عرفات على صلاحيات وسلطات سياسية وعسكرية ومالية وإدارية لم تتوفر لأي من نظرائه، لا لنظرائه من رؤساء حركات التحرير ولا لنظرائه من رؤساء الدول. والحركة التي تصدّر عرفات قيادتها، وُجدت لتجابه أعتى القوى العدوانية في عصرنا، قوة الصهيونية ودولتها، وقوى الامبريالية بدولها ومؤسساتها العديدة، أي القوى الأكثر مساندة لإسرائيل عدوة الشعب الفلسطيني ومغتصبة أرضه وحقوقه.

بتصدره قيادة حركة هذه طبيعتها وتمتّعه بالصلاحيات والسلطات التي استحوذ عليها، صارت لعرفات أهمية مضاعفة، الأهمية التي للحركة التي تصدّر قيادتها، والأهمية النابعة من هيمنته هو بالذات على سلطة القرار الفلسطيني المتصادم، بالضرورة، مع إسرائيل ومع الحشد من الدول والقوى المساندة لإسرائيل. ولهذا، ظل عرفات منذ أول أمره هدفاً للمعتدين. وبالمقياس ذاته، مثل وجود عرفات خطراً مضاعفاً على إسرائيل وما ومن يلوذون بها.

ولأن الحركة الوطنية الفلسطينية المتجددة بعد ١٩٤٨ نشأت على ساحات عربية وإقليمية

*كاتب فلسطيني.

** مداخلة قُدمت إلى مائدة مستديرة عقدتها مؤسسة ياسر عرفات

يوم ٢٠١٤/١/١٢ لمناقشة موضوع اغتيال عرفات.

كثيرة وتمددت وانتشرت في العالم، فقد انضاف إلى القوى العدوانية الرئيسة قوى محلية هنا وهناك ناوأَت ياسر عرفات أو ناوأها هو. هذه المناوءات، ما كان منها أحادي الجانب وما كان متبادلاً، اقتضت أن يصير عرفات في دائرة الاستهداف من قبل قوى محلية أيضاً. ثم لأن الحركة الفلسطينية نشأت من منابت عديدة ولأن كل واحد من هذه المنابت ناسف الآخر واحتمى بطرف خارجي، فقد وُجد عرفات في دائرة الاستهداف، أيضاً، من قوى فلسطينية أو قوى تحمل صفة فلسطيني.

هنا، يجدر الإنتباه إلى حقيقتين تشكلان معاً الأرضية اللازمة لأي نقاش يدار حول هذا الموضوع: حقيقة تعدُّ مصادر الاستهداف وأسبابه؛ وحقيقة تفاوت درجات الأخطار التي لاحقت عرفات، من خطر تقزيم مكانته وصلحياته إلى خطر تصفيته جسدياً. إن الانتباه إلى هاتين الحقيقتين يوجب الانتباه لحقيقة أخرى متصلة بهما، هي حقيقة التداخل بين المصادر التي استهدفت عرفات، التداخل في المصالح، وفي تحديد الأهداف، ونوع الاستهداف ودرجته. وما أكثر ما التقى الذين ضاقوا بوجود عرفات وسلوكه على ضرورة إضعاف مكانته وتقزيم نفوذه. التقى هؤلاء على هذه النقطة دون تواطؤ مسبق، والتقوا، كلهم أو بعضهم، نتيجة تواطؤ مباشر أيضاً. ويمكن القول، دون خشية الوقوع في الخطأ، إن حزمة كبيرة من الأطراف الفلسطينية والعربية والدولية تمتت، بتواطؤ بين أطرافها أو بدون تواطؤ، أن تُضعف مكانة عرفات. وكثيرون منا يتذكرون كيف بدأ هذا النوع من الاستهداف منذ بدأ تمَيُّز عرفات داخل قيادة "فتح"، وكيف استمر الاستهداف واستشرى مع استمرار صعود مكانة عرفات وتعدُّد مناصبه واتساع سلطاته. وفي هذا الاستهداف، امتزج دافعان: إضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية؛ وإضعاف عرفات ذاته. وقد تفاوتت درجة تأثير هذا الدافع أو ذاك، حسب هذا الطرف أو ذاك.

هذا يعني بفسيح العبارة أن الأخطار التي أحاطت بياسر عرفات تعددت. فهناك أخطار الأذى الذي يمكن أن تلحقه أطراف كثيرة بالحركة الوطنية الفلسطينية بوجود عرفات فيها أو بعدم وجوده. وهناك الأخطار التي تستهدفه هو بالذات بسبب المكانة الخاصة التي تحققت له والصلحيات والسلطات التي استحوذ عليها، وبسبب ما تمتع به من قدرة ومواهب قيادية، خصوصاً قدرته على بلبله أعدائه وخصومه وموهبته الفذة في قلب الموائد كلما نصب أعداء الشعب الفلسطيني أو خصوم عرفات الشخصيون مائدةً لا يرتاح هو لوجودها. (١)

غني عن البيان أن وتيرة تدرُّج مستوى الاستهداف قد اختلفت من طرف إلى آخر، وفق ظروف كل طرف، بالطبع، وبالاقتران مع نمو مكانة عرفات وقدرته على مواجهة الأعداء والخصوم والمنافسين. وغني عن البيان، أيضاً، أن وجود أطراف تستهدف عرفات قد قابله

وجود أطراف تحرص على بقاءه وتدافع عنه. وقد وُجدت أطراف كهذه في الساحات كلها، الفلسطينية والعربية والإقليمية والعالمية. وهنا، يمكن للنقاش في هذه المائدة المستديرة أن يضيء تفاصيل الاختلاف والتفاوت في مستوى الاستهداف، كما يمكن أن يضيء الصورة على الجهة المقابلة. وبين يدي هذه الإضاءة، أود أن أجتذب الانتباه إلى أهمية تحديد الأطراف التي استهدفت عرفات والأخرى التي دافعت عنه. وفي السياق ذاته، تبرز أهمية وضع اليد على تفاصيل التداخل بين الأطراف ذوي الأهداف المتفاوتة. إضاءة هذه النقطة لن تكتمل إلا إذا أضاء النقاش، أيضاً، العوامل التي كانت تلجم كل طرف له مصلحة في التخلص من عرفات، أي العوامل التي كانت تحول بين هذا الطرف وبين الإقدام على إيذاء الزعيم الفلسطيني بالدرجة التي يتوق إليها الطرف المعني.

أهمية إضاءة هذه النقاط تبرز عند الحاجة لتفسير السبب الذي حمى حياة ياسر عرفات أثناء وجوده على رأس الحركة الوطنية الفلسطينية المتصادمة على الدوام مع عدد كبير من الأعداء والخصوم وحتى الحاسدين. وهذه الإضاءة تشدد الحاجة إليها حين يراد وضع اليد على السبب الذي رفع الحماية عن حياة هذا القائد بعد تمتعه بها طيلة أربعة عقود. ويمكن للإنسان أن يتساءل، وهذا على سبيل المثال، فقط، إلى أي مدى، وفي أي أوقات، كان ياسر عرفات مستهدفاً من قبل هذه أو تلك من السلطات العربية التي خاصمها، وهل كانت حياته بالذات مستهدفة من أي من هذه السلطات؟ ويمكن، وهذا أيضاً على سبيل المثال، أن نتساءل: إلى أي مدى أمكن للظروف السياسية التي أنشأها عرفات أن تحميه من استهداف إسرائيل لحياته؟

هنا، قد يفيد التمعن في طبيعة سلوك عرفات، خصوصاً ما يتعلق بجهده لحماية حياته ناهيكم بحماية مكانته، من مستهدفيهما.

كان ياسر عرفات أكثر من عرفاً من القادة الفلسطينيين عناية بأمنه الشخصي، ويمكن قضاء ساعات طويلة في استحضار التدابير التي اتبعتها في هذا المجال. غير أن عرفات كان أذكى من أن يُعوّل على هذه التدابير وحدها. فهو يعرف أن أي تدابير أمنية لن توفر حماية مضمونة لحياة زعيم حين يستهدفها طرف مقتدر ومثابر. وإذا كان عرفات قد اعتنى بتدابير أمنه الشخصي، فقد فعل هذا لحماية حياته من مؤامرات ينظمها فرقاء صغار أو غير منضبطين. أما ضمانته حياته إزاء القوى ذات الوزن الذي لا تنفع معه التدابير الأمنية، فقد سعى عرفات لتأمينها بالسياسة التي فرضت على الجميع أن يتجنبوا المس بها. وكان بين بنود هذه السياسة أن يحتفظ هو على الدوام بدرجة من الشعبية في ساحات حضوره كلها، الشعبية التي تلجم نوازح المعتدين. وكان بين هذه البنود، أيضاً، حرص عرفات المثابر، حتى المبالغ فيه أحياناً، على منع أعدائه من تشكيل بديل لقيادته. وبين

هذه البنود، برزت قدرة عرفات على السلوك السياسي في نحو يجعل وجوده ضرورة لقوى عديدة متناقضة في ما بينها.

يمكن إيراد أمثلة كثيرة توضح هذه السياسة، سنكتفي هنا بذكر عناوين لعدد منها، فقط: (١) سياسة عرفات التي لجمت مناوئيه في الفصائل الفلسطينية عن تشكيل قيادة بديلة لقيادته؛ (٢) سياسته التي لجمت كارهيه من الحكام العرب عن الذهاب بعيداً في إيذائه؛ (٣) وهي ذاتها السياسة التي حالت دون تشكل أغلبية عربية رسمية عازمة على التخلص منه؛ (٤) سياسته التي جعلت بقاءه على رأس الحركة الوطنية الفلسطينية ضرورة للاتحاد السوفياتي وفريقه العالمي ولجمت، على مدى عقود، دوافع الولايات المتحدة للذهاب بعيداً في إيذائه.

في سياق تطبيق هذه السياسات، برع ياسر عرفات في المناورة، والمداورة، في قلب المواند، في تبديل الاتجاه لأي درجة لازمة لمنع تحقق توافق عربي ودولي على الخلاص منه، فهذا التوافق، إن اتصلت حلقاته فشملت أطرافاً فلسطينية ذات وزن، كان من شأنه أن يبطل قدرة عرفات على خلق ضوابط تلجم العدوان على حياته. ويبدو أن مثل هذا التوافق هو ما تحقق في العام ٢٠٠٤، وهو ما سنأتي إليه لاحقاً.

مستمراً في هذا السياق، أجزى لنفسي أن أذكر ما عرفته شخصياً منذ بداية الاجتياح الإسرائيلي للبنان ومحاصرة بيروت في العام ١٩٨٢. فالذين اتخذوا قرار الاجتياح في حكومة إسرائيل حصلوا على تأييد أميركي بدرجة أو أخرى واستخدموه لتحقيق هدفهم، وأجاز هؤلاء لأنفسهم أن يعلنوا بفسيح العبارة أنهم دخلوا لبنان لاجتثاث أحشاء منظمة التحرير الفلسطينية وتدميرها. وفي اليوم الذي تلا يوم إحكام الجيش الإسرائيلي حصاره على غرب بيروت، أبلغت القيادة السوفياتية إلى ياسر عرفات رسالة. في هذه الرسالة، قالت القيادة السوفياتية لياسر عرفات إن أقصى ما أمكن التوصل إليه على الخط الأحمر بين موسكو وبين واشنطن هو الاتفاق على أن يخرج أفراد الجسم البشري الفلسطيني المقاتل من بيروت أحياء. وأوضحت الرسالة أن هذا التوافق يشمل ضمان حياة ياسر عرفات. إطلاعي على هذا النبأ جعلني أهتم بتقصي التفاصيل. وهكذا عرفت ما أضيفه هنا وهو وجود توافق دولي، قوامه أميركي سوفياتي، على ضمان حياة عرفات قبل ١٩٨٢، وهو ما استمر بعده.

ما الذي جعل الإدارة الأميركية تجيز لإسرائيل في العام ٢٠٠٤ أن تفعل ما أبت هذه الإدارة أن تجيزه لإسرائيل ذاتها في العام ١٩٨٢، حين كان أرييل شارون وزير الحرب الإسرائيلي في الحكومة التي اتخذت قرار اجتياح لبنان يتحرق لاصطياد عرفات؟ أعرف أن الإجابة على هذا السؤال توقّر

المفتاح لمعرفة حقيقة ما جرى كله، وأعرف أن من العسير استيفاء الإجابة والوصول إلى يقين بشأنها في وقت قصير. مع ذلك، وبالرغم منه، يمكن اقتراح نقاط تساعد في المناقشة:

• عندما اغتيل عرفات لم يكن الاتحاد السوفياتي موجوداً. ومن المهم أن نعرف ما إذا كانت روسيا الاتحادية قد حرصت على استمرار التوافق القديم مع الإدارة الأميركية أم أنها أهملته؟

• اغتيل عرفات بعد احتباسه في مكتبه في رام الله وتطويق القوات الإسرائيلية هذا المكتب لمدة طويلة تجاوزت سنتين؛ فهل ألغت الإدارة الأميركية خلال هذه المدة حرصها على منع حكومة إسرائيل من الفتك به؟

• فيما كان عرفات محتبساً في مكتبه، تشجعت حكومات عربية عديدة كانت تضيق به على التصرف في نحو يُظهر أنها غير حريصة على بقاء عرفات قائداً للحركة الوطنية الفلسطينية. فهل مضت هذه الحكومات، كلها أو بعضها، إلى أبعد من ذلك، هل أبلغ أي منها إلى الإدارة الأميركية رغبتهم في التخلص من عرفات؟ يرد هذا التساؤل، مع التذكير بامتناع غالبية الدول العربية عن عمل أي شيء لتمكين عرفات من حضور القمة العربية التي انعقدت آنذاك في بيروت فيما هو محتبس، ومع التذكير، أيضاً، بأن هذه الدول فعلت كل شيء لمنع عرفات المحتبس من إلقاء كلمة فلسطين في القمة عبر الاتصال الإلكتروني الذي كان متاحاً.

• عرفات المحتبس، في ما أريد له أن يصير معتزلاً يفصله عن العالم، ظل، حتى وهو في هذا الوضع، قادراً على قلب المواثيق التي أعدتها إسرائيل والولايات المتحدة وغيرها لفرض الاستسلام على الجانب الفلسطيني. وقد تجلت قدرة عرفات في هذا المجال حين تمكن وهو محتبس من إبطال محاولات إسرائيل إيجاد بديل له.

• هل اقترنت خطة تصفية عرفات جسدياً بإعدادات تواطأت عليها الإدارة الأميركية مع فلسطينيين ما، ومع عرب آخرين، لتهيئة البديل، أو أن تصفية عرفات تمت لأن إسرائيل والولايات المتحدة وعرب هذه وتلك عجزوا عن خلق الطرف الذي يأذن بإحلال بديل استسلامي محل عرفات؟

• هل يتمتع خليفة عرفات الذي انتخبه الجمهور الفلسطيني في الأرض المحتلة بالضمانة الدولية التي توفرت لعرفات ذات وقت، وهل هناك ما يمنع أن تزول هذه الضمانة، إن كانت موجودة، فيلقى الخلفُ مصير السلف؟

أياً ما كان عليه الأمر، هناك ما هو مؤكد، وهو أن ياسر عرفات قضى غيلة. وقد تم تدبير اغتيال الذي زادت شعبيته وهو محتبس بحيث لا تتم عملية الاغتيال جهاراً نهائياً، وذلك لأسباب كلها مفهومة وقد يرد بين الاسباب رغبة الولايات المتحدة في أن تتم تصفية عرفات بحيث يضيع دمه بين القبائل

وتتمكن هي من إدعاء البراءة أو، على الأقل، التنصل من المسؤولية. والتحدي المائل الآن أمام الجانب الفلسطيني هو هذا: ما الذي ينبغي عمله مما يمكن عمله لفضح ما جرى، ولتوفير القرائن الدامغة، وتعميم القناعة بدرجة معقولة من اليقين حول مسؤولية المسؤولين فعلاً عن تصفية عرفات؟ وما الذي يمكن عمله، من الآن وإلى أن يتم تعميم اليقين، لإبقاء المسألة كلها على جدول الأعمال الوطني الفلسطيني، والحيلولة دون استبعادها عنه؟ ختاماً، أود التأكيد على أن تظهير الحقيقة لا يقتصر على تحديد المسؤولين عن الاغتيال وتوفير القرائن الدامغة، فبالإضافة إلى هذا، هناك الحاجة إلى تحديد الوسائل التي تلجم قدرة إسرائيل على التخلص من كل ممثل للشعب الفلسطيني إذا شكل وجوده الشخصي عقبة أمام مطامعها العدوانية.